

القسم الثالث

ماذا تحقق لأمة الخير في الدنيا

من بيت محمد ﷺ المتواضع جداً في مكة كانت النقلة الثانية بعد أن بدأت النقلة الأولى بغار حراء بعيداً عن أعين الناس وحتى تجمعاتهم ومن كلمات قليلة حفرت في قلب النبي لتكون اللبنة الأولى - الأقوى والأشد والأوضح والأفصح - لحضارة الإسلام . من هذا البيت المتواضع .. استحباب جميع سكانه إلى دعوة الإسلام .. محمد ﷺ حملها من غار حراء إلى بيته فأمنت زوجته خديجة ، ومولاه زيد وابن عمه علي .. ومن ثم خرجت الدعوة من هذا البيت المتواضع جداً والهادئ جداً ، والذي كان مثلاً للعفاف والأمانة والصدق في محيط مكة خرجت إلى أقرب المقربين ، فكان العنصر الخامس أبا بكر من خارج البيت ، وكما طلب موسى عليه السلام أن يبعث الله أخاه هارون وزيراً لمساعدته ودعمه : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَمْشُرُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢) لِئَرْيَا مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَتَّأْنَا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) ﴾ [طه] .

- جاء التكليف لموسى ، فأعطي المعجزات أولاً ، وحدد له الهدف وهو الذهاب إلى فرعون ،

ووعده بآيات كبرى " معجزات تعينه على المجاهدة والمجادلة والحديث .

وهنا وقف موسى مستجيباً للتكليف ولكن بشروط أخرى ، أن يشرح الله صدره ، ويسر أمره ويحل عقدته من لسانه . ثم طلب السند والعضد أخاه هارون تحديداً ليشد به أزره ، ويشركه في أمره فاستجاب الله تعالى بأن بعث هارون وزيراً ونبياً . وذلك ليعبدا الله تعالى ويسبحانه، ويتعاونان على مهمة الرسالة، فاستجاب الله تعالى وأجيب موسى لما سأل .

- أما محمد ﷺ فليس هناك معجزة بداية ، والمهدف للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وفيهم من الفراعنة والطغاة والطواغيت الكثير ، ولم يطلب الرسول من يساعده ، فلم يلتفت لهذه القضايا ابتداءً ، لأنه فقط أراد أن يثبت أنه رسول ، وحتى هذه خشية أن يكون كاهناً في بداية الأمر . رغم أنه رأى جبريل وأكد له أنه رسول ، أما موسى فكان الخطاب مباشراً بينه وبين ربه . وصدق أهل البيت ، الزوجة ، والمولى ، والغلام ، وأول من تلقى النور من خارج هذا البيت أبو بكر ﷺ .. وبدأت أشعة الدعوة وبصير وثبات وسرية تأمة ، بدأت تخترق حجب الظلام ، وتدخل قلوب رجال صدقوا وآمنوا ، وكان تصديقهم ، وبغير المعجزات أمراً عجيباً . فقد كان لكل نبي معجزة إلا محمد ﷺ ، قد كانت معجزته القرآن ، وبعض آيات منه تنزلت ابتداءً . واخترقت هذه الأشعة حجب الظلام ، فكان المؤمنون أعداداً لا تتجاوز بحال ضعف أصابع اليد ثم توالى البشارات ، ونزلت الإنذارات ، وزاد عدد المصدقين حتى كان الجهر بالدعوة ، وقبلها كان إنذار العشيرة الأقرين ^(١) ومن ثم إنذار الناس كافة : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] ثم بدأت المعركة مع الجاهلين ، والتي استمرت ثلاث عشرة سنة ، بأحداثها وبآلامها ، وبالهجرات الابتدائية .. إلى الحبشة .. إلى الطائف .. ولكنها _ أي هذه الهجرات كانت ذات نتائج محدودة في مسار الدعوة ، فهجرة الحبشة حفظت المسلمين من الأذى ، وهجرة الطائف أنتجت إسلام عداس ، وجن نصيبين .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ؛ فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتي ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، قد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد : فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش " ، فقال : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً " ^(٢) .

ثم انطلقت الدعوة خارج مكة ، ولجرد ثباتها في المدينة بدأت تتحرك في الجزيرة العربية قاطبة بالغزوات مع قريش في بدر وأحد والخندق ، وأنته غزوات قريش إلى أن غُزيت في فتح مكة ، وأخرج اليهود من الجزيرة فحوربوا في المدينة وفي خيبر .. فقد جاءوا لنصرة النبي المرتقب فلما

(١) انظر كتابنا : " الدعوة في العشيرة الأقرين " قيد الطبع .

(٢) رواد البخاري (٢٢٣١) ومسلم (١٧٩٥ / ١١١) .

ظهر كفروا به وحاربوه وخانوا عهودهم معه ، ثم خضعت الجزيرة ، وأخذت حركات الردة بعد وفاة الرسول ﷺ ، وحصل الصدام مع أعظم قوتين الفرس والروم ، وسارت الدعوة من نصر إلى نصر على يد الصحابة رضوان الله عليهم ، ولما انتهى جيل الصحابة ، حمل الأمانة التابعون ، وتابعو التابعين ، والذين جاءوا من بعدهم . وسارت الدعوة في خطين متوازيين :

الأول : الفتوح التي فتحها الله تعالى للمسلمين ولم يكونوا ليحلموا بها لكن كانوا مصدقيها من قول الرسول ﷺ " طويت لي الأرض ... إلخ الحديث " فانتشر المسلمون مجاهدين من الصين إلى حدود فرنسا وداخلها ، وكان النصر حليفهم من البر والبحر ، حتى سادوا الدنيا وطوعوها .. وقعوا في الفتن وتجاوزوها ، وأصبحت الدنيا طوع أمرهم وتحت ظل سيوفهم .

الثاني : طريق الدعوة : ما كان للإسلام أن ينتشر هذا الانتشار لو أن خطأ واحداً اتبعه وهو القتال ، لكن الله عز وجل حجب الإسلام إلى نفوس الناس فدخلوه طوعاً دون إكراه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

فقد توسعت رقعة أرض الإسلام في زمن الوليد بن عبد الملك إلى أقصى ما يمكن أن يقبض في حقبة تاريخية قصيرة .. وصل الصين ، ودخل أوروبا وطوع أسبانيا ، اخترق مسلمة بن عبد الملك داخل آسيا في بلاد الترك ، ووصل محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند ، ودانت الممالك والشعوب والقبائل ، وبرزت أسماء من التابعين كفتية بن مسلم الباهلي ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبد الملك ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، وأوقف سليمان الفتح الذي لم يعد بإمكانه السيطرة عليه بعد أن انساح المسلمون في الدنيا ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز ففتح قلوب العباد بسيرته الطاهرة وسلوكه الطيب ، وعدله وإنصافه ، فاستقرت الفتوح ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ولم نسمع عن ثورات من شعوب وجدت أن فتح الإسلام قهراً لها ، أو إذلالاً ، ومضت سنة الدعوة في الآفاق ، فدخلت شعوب في الإسلام ما عرفته قبلاً ، ولا رأت جيشاً ولا حملت سلاحاً أو حمل عليها ، دخلت طائفة راضية ، ومازال هذا الدين يقبل في كل يوم الجموع الكثيرة ، تدخله وتدافع عنه ، وتلود عن حياضه ، باليد وباللسان وبالقلب ، وبكل الوسائل المتاحة .

إن صفاء الإسلام واستمراره واستمراريته تنزيهه والوصول إلى السنة الصحيحة ، واجتهاد المجتهدين قد جعل الناس يندفعون إليه كحق من الله منزل على عباده ، لم يعتريه تحويل ولا تأويل ولا تقصير ولا تطويل . وبذلك فقد اكتسبت الدعوة في الإسلام موضعاً لا يقل في حال من الأحوال عن المجاهدة بالسيف والناس . فإن دعوة المثل والقول باللسان ، والسلوك الطيب ،

وكذلك الخلوصل إلى فطرة الإنسان ؛ أبت الدعوة طريقاً واضحاً وجلياً ، ومؤثراً ومنتجاً ، ومع كل الأسلحة التي استخدمت لتوقف هذه الدعوة فإنها وبكل ثبات وبكل قوة دخلت قلوباً فليتها ، وقادتها ، وعرفتها بالحق المبين .

الدعوة إلى الله لاقت استجابة كبيرة من المدعوين ، وتناوب هؤلاء عن غيرهم هم هذا السيدن وحملوا إلى أمم وشعوب أخرى كان لها الدور المؤثر في ذلك .

- أما من حيث الامتداد ، والانحسار ، فإن أرض الإسلام تعرضت في تاريخها الطويل إلى امتحانات ونكسات ، وحروب - أقل ما يقال فيها أنها حروب إبادة - غزا العالم الإسلامي من المشرق المغول والتتار ، وغزاه من المغرب الصليبيون والاستعمار الحديث ، واليوم تتعرض لهجمة أخرى أعظم شراسة، وأوجع فتكاً بالفكر والسلاح والإعلام والعسكر والاختراعات المدمرة .

جاء المغول والتتار من الشرق ، وارتكبوا مجازر ما تحدث عن أشنع منها التاريخ واجتاحوا أراضي استقر فيها الإسلام وهنا ، وامتد واتسع ، فكان هؤلاء قمة الوحشية في تدمير الحضارة التي وصلتها أمة الإسلام في تاريخها الذي سبق هذه المهجمات .. مما تحقق ما ذكره الرسول ﷺ من الفتن والدمار . لكن أصالة هذه الدعوة ، وعمق جذورها وتفرع أغصانها ، وطيب ثمرها وشجرها .. جعل أمر هؤلاء الغزاة حماة له ، ومدافعين عنه وساعين لنشره بالوسائل المتاحة . وليقرأ من شاء تاريخ هذه المهجمات ، وتاريخ هذا التحول ، الذي جعل المهاجمين حماة الإسلام ودعائه والمدافعين عنه ، لم يكن ذلك مقتصرأ على المغول والتتار ، فإن القبائل التركية ، والشعوب الأخرى في آسيا استكانت واستأنست وحملت الإسلام ، ودافعت عنه ، ومازالت عند خروجهما من المحن تجأر إلى الدين وتستعين به للوصول إلى أهدافها وغاياتها .. وكانت هذه الشعوب امتداداً للحضارة الإسلامية ؛ التي أسامها التوحيد ، والعبادة والطاعة ، والدعوة لله . والتاريخ طويل ولا يمكن أن نحمله بأسطر أو صفحات ، إنه تاريخ طويل استغرق القرون والسنين ، واستهلك الأمم والشعوب وتجاوز المضلين والضالين ، وبقي الإسلام نقياً كما كان .

أما المهجمة الأولى من الغرب الصليبي ، فقد دامت أكثر من مائتي عام ، دخلت الأرض المقدسة التي قدسها الله تعالى ولكنها أخيراً خرجت ، وحملت معها التقدم العلمي ، والبحث العلمي ، والحضارة المتقدمة المتطورة ، والكشوف الجغرافية لترسي هذه المبادئ أسس الحضارة الصناعية الحديثة . وتمكنت أقوام من المسلمين أن تمتد في أرضها ، وترسي قواعد الإسلام في أوروبا ، ومازالت تلك القلة (الطائفة المؤمنة من المسلمين) تتحرك باسم الإسلام ، وتبني قواعده وأسسها وتقاوم بحجرات وصبر كل ما فعله أولئك الغازون .

إن حقبة الاستعمار الغربي الذي تمكن مجدداً من العودة إلى الإسلام ، ومكث ما يقارب مائتي عام أيضاً ١٨٣٠ _ ١٩٩٠م أن يرسى أسس حضارته في أرض الإسلام لكنه عاد مجدداً مخذولاً محسوراً ، ليخلف العداوة لمولود جديد خرج من ضئضئه ، وهو الولايات المتحدة ، التي تحاول الآن أن تفعلها ثانية بشن حرب ضروس على الإسلام والمسلمين ، متخذة ذرائع وحججاً بثتها هي فينا ، وأيديها وغتها ، وكذلك الإشارة إلى تخلي الكثير من المسلمين عن إسلامهم واللاحاق بهذا العدو الجديد .

المهم أن الإسلام تمكن أن يتخلص من كل هؤلاء وغيرهم ويبقى على عقيدته وإيمانه ويقينه ، غير عابئ بما جرى ، وبما سيجري فإن الله معنا . مع إسلامه ، مع رسالة نبيه ، مع عبيده المؤمنين .. والله نرجو أن يكون قريباً .

الذي تحقق مع انتشار الإسلام في أمم الأرض ، والرؤيا الصادقة التي نراها الآن .. زحف الإسلام إلى الغرب .. ودخول الغربيين في دين الله ، رغم ترصد اليهود ليقعوا بين المسلمين والنصارى ، واستمرارهم خلق الفتن والحروب بينهم ، ونجاحهم بالتآمر والكذب والخديعة ، ومحاربة أي تقدم يمكن أن يستفيد منه المسلمون ، رغم كل المعوقات ، ورغم كل السليبات التي تحصلت بين المسلمين ، لكن الإسلام عاد ليطرق الآذان ، ويخترق الحجب ليدخل في القلوب ، يثير العقول، ويدفع الناس إلى القبول المطلق لهذا الدين .. من أهله الذين هجروه ، ومن الناس الآخرين ؛ والشيء الآخر ، فإن قيام حضارة الإسلام الروحية الإلهية المتميزة ، صبغت شعوباً كثيرة في مشارق الأرض ومغارها بسماتها وصفاتها وأسسها وقيمها وتوحيد معتقداتها وعبادتها ، ونبذ الشرك والشركيات ، والانحراف عن طريق السقوط الإنساني في حماة الحيوانية ، وترفع الإنسان بخلقه ودينه وتعاملاته الكثيرة والمستقرة والواعية لطبيعة البشر وطبيعة الإنسان ، الذي عاش في خضم ضغوط الجاهلية التي بدأت الدعوة إليها ، قد أعطت الإنسان المسلم صفات حضارية راقية ، ميزت أمة الإسلام عن سائر الشعوب ، إن الأرض في آسيا وأفريقيا وأوروبا التي ترعرعت عليها الحضارة الإسلامية، ونمت، وأثرت، كان لها في الحياة البشرية غيرية كاملة عن حضارات الوثنية ، أو الضلال وهذه الحضارة رعتها الروحانية ، والإيمان ، والتوحيد ، والسلوك الإسلامي الجيد .

- سار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب ، واقتصرت العبادات اللفظية على العربية في الصلاة والحج والدعاء ، وقراءة القرآن ، فكما حملت الشعوب الإسلام فإنها أيضاً تحولت إلى دارسة ، وعالمة ، وناشرة لغة العرب ، وارتبطت أسماء لامعة من غير العرب في دراسة اللغة وقواعدها ، وفقهها ، ومشتقاتها ، وأدبها ، وشعرها ، وهذه الأسماء تولت المحافظة والتطوير ،

ووضع المناهج لتعلم اللغة العربية ونشرها مستوحية فيضها من القرآن الكريم الذي اختارها لتكون وعاء الإسلام ، ومع بعض الجهل في أمور الإسلام ، في عصور قائمة مظلمة ، وانحسار تعلم العربية لكنه في أوقات أخرى ، ومناسبات أخرى ، وشعوب أخرى ، قد طورت وتعلمت وعلمت وأبدعت في علوم اللغة ، واستمرت اللغة العربية ، حيث لا يقبل الإسلام من المسلمين - وهم الأكثرية الآن من غير العرب - على قبول القرآن بلغاتهم ، قبلوا بعضاً من معانيه ، لكنهم في صلاتهم يحفظونه ويرددونه ويرتلونه . وبذلك فقد بقيت اللغة العربية قائمة ، دائمة ، قادرة على الاستمرارية والثبات والانتشار .

ويجد المسلم - من غير العرب - في تعلمها قربى من الله تعالى ، وبأنه يستطيع أن يتلو ويفهم كتاب الله تعالى ، ويعرف معنى أحاديث رسول الله . أي يعرف دينه ، ويفهم معتقده ، ويحسن ويتقن أداء فرائضه وواجباته ، وأي مسلم في هذه الدنيا يحفظ فاتحة الكتاب ؛ لأنها تتلى في الصلوات كلها - على الأقل .

دعا الإسلام إلى العلم والقراءة والكتابة ، وبذلك فقد كان انتشار الإسلام نقلة خطيرة في حياة الشعوب ، العرب أولاً ، ومن اعتنق الإسلام من الشعوب الأخرى ثانياً ، ومنذ فجر الإسلام بدأ التخصص بالعلوم بدأ بتدوين القرآن ، وحفظ حديث رسول الله . وبذلك فقد شغل الإسلام الأمة والأمم الأمية بالتعلم قراءة وكتابة وحفظاً وتدويناً . فكان أول هؤلاء كتبة الوحي وحُفَظَ القرآن الكريم ، أمران .. أخطر ما عملته الأمة الأمية .. وتوجهت لهم لهدى الأمرين العظيمين في حياة رسول الله ، وانتشر التعليم بشكل كبير وبشكل واسع ، وبدأ التخصص فيه ، تخصص الكتاب للقرآن الكريم ، تخصص القراء للقرآن الكريم ، فخصص علماء العربية لمعرفة معنى التزيل ، وكان النبي ﷺ أعلم بكل هذه ، فكان يراجع القرآن مع جبريل في رمضان من كل عام ، ويرتب ويقدم ويؤخر حسب التوجيهات الربانية التي يحملها جبريل عليه السلام ، وفي آخر عام من حياته ﷺ راجعه مرتين ، واطمأن لرسمه وترتيبه ، ومعانيه ، وناسخه ومنسوخه ، وتكفل أصحابه بدراسة أسباب التزيل ، وربط الأسباب بالمسببات ، وبدأ التخصص في أهل الصفة لحفظ حديث رسول الله ﷺ ، وتدوين بعضه ^(١) ، وبرز عدد من العلماء الأجلاء كل في اختصاصه ففي التفسير والحديث برع عبد الله بن عباس ، وفي علوم القرآن المختلفة علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وفي الحديث أبو هريرة ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً .

(١) لقد تم تدوين بعض الأحاديث في حياة الرسول ﷺ كما تفيد الأخبار والمرويات بذلك .

هذه أمثلة بسيطة جداً ونحيل القارئ إلى أولئك الذين درسوا القرآن ودرسوا التفسير ، ودرسوا القراءات ، ودرسوا .. ثم الذين حفظوا أحاديث رسول الله ﷺ ونشروها في الآفاق إذ ورثهم جيل أكثر منهم رغبة وغيرة على دين الله _ كتاب الله وسنة نبيه _ وبرعوا أيضاً بحفظ أخبار الصحابة والفتوحات والأحداث الجسام التي أصابت دولة الإسلام . ولم يمض القرن الهجري الأول ، إلا وقد أُنعت علوم الإسلام وتخصصاتها المختلفة . وأصبح العلماء أكثر عدداً ، وأعلى نسبة بين المسلمين جميعاً وبدأ التدوين منذ القرن الثاني الهجري . في علوم الدين أولاً .. علوم القرآن _ التفسير ، الحديث ، الصحاح والسنن والمسانيد والمستدركات ، وجاء علم الفقه ليبين للناس أمور دينهم ، خاصة وأن المسلمين كثروا ، وكان منهم العرب وغير العرب .. الفرس والروم والترك والبربر والديلم والنصارى واليهود وكان القرن الثالث الهجري ذروة الأداء العلمي الديني وصاحب تدوين علوم الشريعة من المفسرين والمحدثين والفقهاء ، علماء التاريخ والرجال ، والعلوم الاجتماعية والإنسانية والذاتية ، وخاصة الشعراء .. الذين كثروا في العهد الراشدي ومن العجيب أن باب الغزل كان أكثر باب في عهد الصحابة . وبرع شعراء غزليون خلدوا حبهم وغزلهم تحت سمع وبصر صحابة رسول الله ﷺ .

وفي القرن الرابع بدأت العلوم المترجمة تغد على المسلمين فانتشرت الفلسفة وعلم الكلام وظهرت الفرق الفكرية ، ذات الثقافة الواسعة ، وكان لظهور الفرق الفكرية والسياسية مؤيدون علماء ينافحون ويجادلون ، ويدافعون ، فيبرز علماء وعلوم جديدة ، ما عرفها العرب قبلها .. ثم جاءت علوم الدنيا من الفلك والحساب والرياضة والكيمياء والتشريع والعلوم المختلفة ، والتي كانت نقلة حضارية .. إذ تمكنت الحضارة الإسلامية من استيعاب العلوم الإنسانية - اليونانية والهندية ، والهلنسية والزرادشتية .. وكل ما سبق الإسلام من علوم حتى علوم النصارى واليهود ، ونقلوها بأمانة إلى العالم ، حيث استفادت الحضارات اللاحقة بهذه النقلة الخطرة ، وكذلك هذه العلوم التي لولا الإسلام لبادت ، وذهبت . لكن حضارة الإسلام حفظتها وطورها وقدمتها هدية متواضعة للعالم الحديث الذي بنى كل إبداعاته عليها وبشكل كبير .

أما عن العلوم الإسلامية ، أو التي ارتبطت بالإسلام كالعربية والفلسفية ، والتصوف ، وعلوم الإنسان والحيوان والنبات فقد تطورت تطوراً هائلاً ومتقدماً بشكل ملحوظ، ونستطيع أن نقول وبكل اطمئنان بأن العلوم الإسلامية بقيت متداولة حتى القرن الثامن عشر بدءاً من كلمة اقرأ - بداية التثريل - في القرن السابع ، وكان محور العلوم كلها مرتبطاً بشكل ما بالعلوم الإسلامية .

مازالت آثار العلوم الإسلامية متداولة وبشكل كبير في جميع لغات العالم سواءً أوروبا أو المشرق، أو آسيا ، أو أفريقيا .. وآثرت العربية على لغات المسلمين جميعاً ، فكثبت هذه اللغات بالحرف العربي . والمتداول الآن في العالم الرقم العربي وعند العرب الرقم الهندي ولو أن اللغة التركية تفلتت برودة مأكرة لتكتب بالحرف اللاتيني .

- تشكلت نتيجة انتشار الإسلام خارطة عرفت بخارطة العالم الإسلامي ، وقد تحدثنا عنها في بداية بحثنا ، وهذا العالم ، وهذه الأرض يغلب على سكانها المسلمون ، عدا أن الإسلام هو الديانة الثانية في أكبر التجمعات البشرية في العالم ، في الصين ، في الهند ، في أوروبا كلية ، من روسيا إلى أسبانيا . والآن قفزت الديانة الإسلامية لتكون الثانية في أمريكا .. ومازال الإسلام في تقدم ، واعتناق الناس له، وكذلك بالتوالد المتنامي ، إضافة إلى عودة المسلمين إلى دينهم وبشكل ملحوظ ، لم يكن ذلك على الأقل في بدايات القرن الماضي .. ولكنه الآن يتقدم وبشكل واسع وأكد في جميع أنحاء العالم . فالمسلمون في زيادة ، وسواهم في تناقص رغم كل المضادات له والساعية لإيقاف انتشاره وتطوره .

- الحرب سجال .. والعالم كل العالم بأهمه المختلفة بين مد وجزر مد بالحروب والانتصارات والاختراعات ، وجزر بالتخلف والجهل والتقليد ، مد بالقوة والسلاح والتجمعات وجزر بالترقة والضعف والتشردم .. مد في البحث عن القوة والتقدم ، وجزر بالخنوع والتبعية والانحزام . ولو ألقينا نظرة فاحصة على العالم اليوم لوجدنا أن المسلمين في خانة الجزر ، وليسوا في خانة المد .. تجزئة ، وضعف ، وتخلف ، وتشردم ، وانحزام .. وقوة كبرى فتحت فاهها لابتلاع عالم الإسلام بما فيه من خيرات ، وبما فيه من ثروات ، وبما فيه من روح الحضارة – بترو ل أو معادن – وهذه سنة الكون . صحيح أننا في مؤخرة الركب ، ونعيش على فتات الأقوياء ، وهزمتنا شذاذ الآفاق ، ولكن ... ولكن ... الله معنا ، وسيدفع عنا غائلة الأعداء وكيدهم ومكرهم .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال] .

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران] .

﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾

[النساء : ١٠٤]

﴿ إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء] .

خاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد .. وأنا أكتب هذه الخاتمة .. أكون قد طويت عاماً كاملاً ونيف وأنا أحاول أن أستدرك موضوعات هذا البحث ، وكلما ظننت أنني قد وفيت ، وجدت أن أموراً كثيرة مرتبطة به ومسح الرغبة بالاختصار الشديد .. إلا أنني طويت لبحث آخر فصلاً كنت قد أعدتها لتكون من صلب هذا الموضوع خاصة عن طرقي الصراع الآن بين حملة لواء الإسلام وبين أعدائه .. وتفنيد أحوال هؤلاء الحملة ، وكذلك الوصول إلى نوايا أولئك الأعداء الذين تكاثروا ، ونكالبوا ودعا بعضهم بعضاً في محاولة للقضاء على هؤلاء الحملة ، مهما كانوا مسلمين .

إن الحديث عن أمة الخير طويل وممتع ، لما تتمتع به أمة الإسلام من مزايا وخصال خصها الله تعالى بها .. نعم .. إن كثيراً من الخصائص يشارك ببعض منها غيرها من الأمم، وهي مستمرة بالطبع من توجيهات الأنبياء الذين أرسلوا لهذه الأمم، وإذا فقدت بعض السمات عن هذه الأمم ، فلكونها انخرفت عن تعليمات أنبيائها ومرسلها ، والله تعالى قص على نبينا بعض أخبارهم والآخرون لم يقصصهم : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [عافر : ٧٨] وبذلك فإن سمات أرادها الله تعالى في آدميين قد بقيت ، وبعضها زالت ، وبعضها لم يعمل به . ويكون بذلك قد تساوى في جميع الرسالات مزايا الخير والإيمان، والتوحيد ، ولكن ترك العمل بها ، أو تحريف هذه الرسالات قد أحاز اللاحقون الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبعض المحرمات التي حرمت عليهم .. وبعض الأمم قد اتخذت التيار المعاكس تماماً لدعوات الأنبياء والرسول . ألم يهلك قوم لانتشار عادة اللواط عندهم وأرسل الله لهم رسولاً مكث فيهم زمناً طويلاً ، ثم خرج من بينهم مع عائد محدود من الذين اتبعوه ، وربما من أهله وهلك معهم زوجته ، ونرى اليوم مدعى الانتساب إلى رسالات الأنبياء يحيون هذه العادات بقوانين وقيم ، ولا يعاقب عليه أحد . ألم تمنع الرسالات السابقة الزنا وأتباعها اليوم يعتبرون الزنا من المباحات، والتي يأتونها علانية وبدون حرج .. ألم يكن الأنبياء جميعاً قد دعوا إلى توحيد الله تعالى بالألوهية والربوبية ودعوا أقوامهم لعبادة الله تعالى وتوحيده . واليوم أشرك الأتباع بالله وعبدوا أنبياءهم ونسبوه إلى الله تعالى ذرية وولدا ..؟ أليست قيم الأخلاق التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام ، وجاء محمد ﷺ ليتمها : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (١) وكان القرآن الكريم الوعاء النصابي لهذه المكارم . كما قالت عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ : " كان خلقه القرآن " (٢) ..

أليس وأليس؟! تكراراً لكل الفضائل التي أرادها الله تعالى بهذا المخلوق وأكد عليها بالرسالات المتتابعة المتلاحقة ، وبالأنبياء الذين تواجدوا مجتمعين مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك ،

(١) أحمد ٣٨١/٢

(٢) أحمد ١٦٣/٦

ومتفرقين في زمان ومكان محددين تماماً ، وكلهم جاءوا لأقوامهم بأوامر الله تعالى التي أمر أنبياءه عليهم السلام بالدعوة لها . فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ... واسترسل الأتباع باتباع الشهوات والمنكرات ، وترك الفضائل والمباحات ؟ من هذا المنطلق أردت أن أقف على صفات أمة الإسلام ، حيث إن الله تعالى اختارها من بني آدم جميعاً ومن الناس جميعاً من بدء الخلق إلى نهايته لتكون هي فقط خير أمة أخرجت للناس .

في الواقع إن تسويد كل هذه الصحف في هذا المجال .. هو القول الحق عن هذه الأمة، ولا بد في الواقع أيضاً من إجلاء هذه الصفات ، وتبليغها إذ إن أمة الإسلام وحدها التي تمكنت من أن تحافظ على صفات الخير التي أرادها الله تعالى فيها وبذلك فقد اكتسبت لقب الخيرية وصفة العلو والسمو على سائر الأمم .

قد أكون قد قصرت بإبراز صفات يحق أن تبرز وذلك لحاجة البشرية إليها الآن، في وقت أصبح بإمكان الإنسان في مكان وقد ملك القوة أن يبديد الآخرين وبأعداد هائلة في لحظة البصر، وتمكن الإنسان أن يفتح أيضاً أمام الإنسان آفاقاً وإبداعات ما عرفها السابقون، وكلها - كما يسعى المبدعون - لخير الإنسان ولهنائه ولسعادته، وإذ بالكثير منها قد انقلب غمماً وهماً على بني البشر لأن العلم هذا قد بني على ضلال، وعلى عقيدة مادية بحتة بعيدة عن رسائل الرسل ومنهج الله تعالى . إن السعي لفرز الخير من النشر والواضح وضوح الشمس في رسالة الإسلام، رغم بعض التجاوزات والانحرافات، فإن منطوق القرآن الكريم، ومنهج محمد خاتم الأنبياء والرسل عليهم السلام ﷺ هو الذي يمكن له أن ينقذ البشرية من الدمار، والانحراف ، وتحقيق خلافة الإنسانية في الأرض . وبذلك فقد صنفت هذا الكتاب في مجال الدعوة إلى الله تعالى من طاعته بقوله جل وعلا : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال رسول الله ﷺ : " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ! إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نسبا ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً " (١) .

وبذلك فإن خير أمة أخرجت للناس أرسل لها خير الناس ، وخير الكتب ، واختارها الله تعالى لهداية الناس والشهادة عليهم .. فيحق لنا إجلاء هذا الأمر أكثر فأكثر والله أرجو أن يكون ذلك شعاعاً من نور الحديث عن خير أمة أخرجت للناس .

١٢ / ١ / ١٤٢٣ هـ

عمان في ١ / ٢ / ٢٠٠٣ م

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٢) وقال : " حسن " والإمام أحمد .

المراجع

- القرآن الكريم

- كتب التفسير :

- سيد قطب : في ظلال القرآن - دار الشروق .
- وهبة الزحيلي : التفسير المنير - دار الفكر - دمشق .
- محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري : الجامع لأحكام القرآن - دار إحياء التراث العربي .
- ابن كثير : تفسير القرآن الكريم .
- الفخر الرازي : التفسير الكبير .
- الطبرسي : البيان في تفسير القرآن .
- تفسير النفسي : تفسير الخازن .
- تنوير الأذهان في تفسير روح البيان : دار العلم - دمشق ١٤٠٨ هـ .
- الإمام الشوكاني : فتح القدير .

- كتب الحديث :

- الإمام البخاري : صحيح البخاري .
- الإمام مسلم : صحيح مسلم .
- الإمام ابن حبان : صحيح ابن حبان .

- كتب السنن :

- الإمام أبو داود : السنن .
- الإمام الترمذي : السنن .
- الإمام النسائي : السنن .
- الإمام أحمد بن حنبل : المسند .
- الإمام مالك بن أنس : الموطأ .
- الهندي : كتر العمال .
- ابن عساكر والبيهقي والدارقطني والدارمي وغيرهم وردت في متن الكتاب .
- ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق، شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة.

- ابن هشام : السيرة النبوية - دار المنار - القاهرة .
- ابن كثير الدمشقي : البداية والنهاية - إصدار دار الفكر - بيروت ١٨٩٦ م .
- ابن منظور : لسان العرب - قاموس - دار صادر - دار بيروت .
- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون والمبتدأ والخبر .
- أحمد حسن الزيات وآخرون : المعجم الوسيط - دار الدعوة - إستانبول .
- أعلام الحضارة العربية الإسلامية : وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٩٥ م .
- أحمد بن مصطفى : مفتاح السعادة .
- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - مكتبة المتنبي - بغداد .
- دائرة المعارف الإسلامية: عدد من الكتاب الغربيين والباحثين والمحققين المسلمين .
- الرشاد : مجلة فصلية ثقافية - تصدر عن مركز دراسات الثقافة والحضارة / أمريكا .
- السهيلي: الروض الآنف في شرح سيرة ابن هشام .
- سالم يغوث: تكامل العلوم العقلية والشرعية عند ابن حزم .
- صفى الدين المباركفوري : الرحيق المختوم - دار السلام - الرياض ١٩٩٤ م .
- د. ظافر القاسي : نظام الحكم في الإسلام في الشريعة والتاريخ الإسلامي - دار النفائس ١٩٨٥ م .
- د. عبد الرحمن الصابوني : أحكام الطلاق في الفقه الإسلامي - دار القلم - الإمارات - ١٩٨٧ م .
- د. عبد الله علوان : تربية الأولاد في الإسلام - دار السلام - القاهرة ١٩٨٧ م .
- د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان : أزمة العقل العربي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فرجينيا - أمريكا .
- د. عبد المجيد النجار : مباحث في منهجية الفكر الإسلامي - عبد المجيد النجار - دار الغرب الإسلامي ١٩٩٢ م .
- محمد بن عبد الوهاب : في عقائد الإسلام .
- الشيخ محمد الغزالي : فقه السيرة النبوية .
- د. منير محمد غضبان : فقه السيرة النبوية ، جامعة أم القرى ، دار الوفاء مصر .
- مراد هوفمان : الإسلام عام ٢٠٠٠ - دار الشروق .
- مجلة المجتمع الكويتية : العدد ١٤٤٦ محرم ١٤٢٢ هـ .

- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- محمد عبدالله الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد - وزارة الأوقاف - الإمارات .
- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن - مقدمة بقلم محمد رشيد رضا .
- د. محمد عمارة : معالم المنهج الإسلامي - الأزهر ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي -
فرجينيا - واشنطن .
- مركز دراسات الوحدة العربية : هجرة الكفاءات العربية .
- د. محمد رأفت عثمان : رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي _ دار القلم .
- د. منير العجلاني : عبقرية الإسلام في الحكم .
- ونستك وآخرون : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .
- د. يوسف القرضاوي: المبشرات بانتشار الإسلام _ سلسلة رسائل ترشيدية .
- كتب وبحوث للمؤلف ياسين محمد غضبان ومنها :**
- مدينة يثرب قبل الإسلام : دار البشير ج ١ من تاريخ الأنصار السياسي ١٩٩٤ م .
- حاضر العالم الإسلامي : دار البشير ط ٢ _ ١٩٩٧ .
- المسجد في تخطيط المدينة العربية الحديثة : بحث منشور في مجموعة بحوث المؤتمر الثامن
للمدينة العربية - الرياض ١٩٨٦ م .
- الدعوة في العشيرة الأقربين : قيد الطبع .
- مقدمة الوجيز في التاريخ الإسلامي : قيد الطبع .
- صفة كتاب الله في كتاب الله : قيد الطبع .
- نساء في حياة خاتم الأنبياء : قيد الطبع .
- نساء في حياة خاتم النبيين : قيد الطبع .